

وعينا المنسي – صوفي نادر

جرت العادة في كل يوم أن أستقصي آخر الأخبار المحلية والعالمية لمعرفة ما يجري، أولاً، وما هي تداعيات ما يجري على أمتنا، ثانياً. أن أتابع الأحداث أمر اعتيادي في ظل مختلف الأزمات التي نواجهها والتي، إن حاولنا تباعاً قراءة ما بين سطور هذه الأحداث، نراها تصب بمجملها في سياسة نسف تاريخنا الحضاري وقولبته ضمن إطار جديد يحلو لمبرمجيه إذ يسهل عليهم تنفيذ اتفاقياتهم ومعاهداتهم.

وهنا أتقدم بالاعتذار لمناصري نظرية وجود مؤامرة ضد أمتنا فأقول لهم إنه لم يعد هناك من مؤامرة لأن لهذا المفهوم خاصية معينة ألا وهي أن كل تدابيره تحاك في الخفاء. اليوم كل شيء يحاك في العلن وما نقوم به هو فقط محاولة فك الرموز وكأننا أمام لعبة ذهنية، فننتبارى مع بعضنا البعض لمعرفة من فهم الأمر قبل غيره.

إن ما نتفق عليه جميعنا هو أن هدف كل هذه الاتفاقيات والمعاهدات هو الإكثار من الشروخ في خط سير تاريخنا وتثبيتها بحيث لا نستطيع بعدها ترميم ما هدم بأي شكل من الأشكال. وقد أصبحت نتائج هذه الشروخ واضحة عند التحدث لمواطني أمتنا فنقول عنهم إنهم لا يعون، فعلينا توعيتهم لكي نرسم ما هدم.

هناك فرق كبير بين فهم حقيقة تاريخية وبين وعيها. إن أي فرد من غير أمتنا سيفهم حقيقتنا إذا شرحناها له أما نحن فنعيها لأنها متوارثة في ذاكرتنا. فالوعي هو الذاكرة. وما نقوم به طوال حياتنا ككائنات بشرية هو توارث الذاكرة من جيل إلى جيل لأن هذه العملية هي الوحيدة القادرة على تثبيت الحضارة وبالتالي تثبيت الهوية.

الأخبار المتعددة التي تتناولها الصحف العالمية والمحلية تثبت أن هناك توجهاً واضحاً في تعطيل عملية الذاكرة لدى المجتمعات والدول الضعيفة من قبل المجتمعات والدول المسيطرة. إليكم بعض الأمثلة:

الأول يتعلق بسياسة الولايات المتحدة الأميركية مع طالبي الهجرة واللجوء القائلة بفصل الأطفال عن أهاليهم ووضعهم في مكان مختلف. والثاني يتعلق بالقرار الإسرائيلي إلغاء اللغة العربية كلغة رسمية في الدولة اليهودية مانحة إياها صفة لغة ذات وضع خاص. الثالث يتعلق بمقال صحفي حول الفريق الفائز بكأس العالم في كرة القدم معتبراً أنه ليس فرنسياً بل أفريقياً، فكان رد السفير الفرنسي في الولايات المتحدة إن اللاعبين فرنسيون لأنهم يسكنون في فرنسا وقد اكتسبوا الثقافة الفرنسية بالرغم من أصولهم الأفريقية.

إن انتقال الذاكرة بحاجة إلى عاملين اثنين ألا وهما العامل البشري وعامل اللغة. فالسياسة التي تمارسها الولايات المتحدة الأميركية بفصل الأطفال عن أهاليهم، حتى ولو كان الهدف منها الضغط على الأهالي للعودة إلى موطنهم الأصلي، تقوم بتعطيل عملية توارث الذاكرة ولو لفترة قصيرة بين الجيلين وتخلق ذاكرة جديدة لدى الصغار قادرة أن تغير توجههم السياسي تجاه أميركا. وإعتبار اللغة العربية لغة ذات طابع خاص من قبل الدولة العبرية سيؤدي في المستقبل القريب – عبر منع التخاطب بلغة الذاكرة – إلى خلق ذاكرة جديدة يهودية لدى مواطني أمتنا في فلسطين فلن يذكرها أصولهم السورية. أما اعتبار اللاعبين

الأفارقة في الفريق الفرنسي فرنسيين لأنهم اكتسبوا الثقافة الفرنسية فأمر في غاية النبل والرقى إلا أنهم – أي اللاعبين الأفارقة – يشار إليهم دائماً على أنهم أفارقة فقط عندما لا يتعلق الأمر بمكاسب فرنسية. الهدف من السياسة الفرنسية ليس دمج الأجانب في الحياة الاجتماعية الغربية إنما العمل على تغيير هويتهم بشتى الوسائل فيلغى ولاؤهم لموطنهم الأصلي عبر إعطائهم ذاكرة جديدة لا تمت لتاريخهم الحقيقي بصلة.

هذه السياسات ليست جديدة لكنها اليوم أصبحت علنية. وهي قادرة على تغيير مسار المجتمعات والدول والأمم عبر خلق إنسان بذاكرة فارغة يغذونها كما يشاؤون. إن أمتنا لم تنجو من هذه العملية في الماضي وما زالت مقيدة بشروطها حتى اليوم. لقد انقطع توارث الذاكرة عند حدوث العديد من الهجرات في القرن الماضي ولو تعددت واختلفت أسبابها. وما زالت الأزمات المتعددة التي تحيط بأمتنا تساعد على انقطاع توارث الذاكرة ما بين الأجيال. لم يعد للعامل البشري من امكانية لنقل الذاكرة واختفى عامل اللغة تماماً. لقد تعلمنا أن نصبح غير سوريين لأننا اقتبسنا ذاكرة جديدة.

لقد كان الحري بنا نحن كقوميين اجتماعيين أن نذكر بتاريخنا قبل أن نشرحه ونفسره. لأن بالذاكرة فقط يتبلور الوعي لقد قال لنا أنطون سعادة أن « نذكر كيليكيا والاسكندرون وقبرص وفلسطين » وأكد في القسم أن « نتخذ من مبادئ حزبنا إيماناً لنا ولعائلتنا » لأن العائلة هي مجال التوارث..

نحن اليوم نفهم تاريخنا لكننا لا نعيه لأننا فقدنا الذاكرة.